AHMAD K.A

المدرسة القنائية

بقلم الكاتب الكبير الاستاذ عباس محمود العقاد

كان أول اشتغالى بوظائف الحكومة فى إقليم قنا وهو أقرب الأقاليم إلى بلدتى أسوان، فرأيت فيها عجبا بين البلاد المصرية فى ذلك الحين، وأعنى به تلك الحركة الأدبية التى تعد تالية لحركة القاهرة نفسها فى أوائل القرن العشرين، لأننا لم نعرف مدينة بين مدن هذا القطر جمعت من الأدباء والشعراء من يضارعون أدباء قنا وشعرائها فى الكثرة والجودة، فلم يكن عددهم فيها يقل عن عشرين، ولم يكن لمجالسها حديث فيما هو أفضل عند أهلها من رواية النظم الرائق والنثر البليغ.

وأقول أنه عجب لمن لا يعرف السبب، ولكنه هو الشىء المنظور لمن يعرف سببه القريب، وهو أن إقليم قنا هو الكورة المعروفة فى تاريخ مصر بكورة قوص، وهو مقر المدرسة الأدبية الكبرى التى نشأ فيها العلماء والأدباء والفضلاء وظلت عامرة بهم وبتلاميذهم مئات السنين، وحسبك أنها كانت المدرسة التى نشأ فيها البهاء زهير وجمال الدين بن مطروح، وهما فى زمانهما رافعا لواء الشعر العربى غير مدافعين.

قال أبو اسحاق البيهقى، «إن المستولى على إقليم قوص المشترى» والمشترى كما يعلم الشعراء هو عند الأقدمين من مشرقيين ومغربيين رب الآداب والفنون.

ثم قال : « والغالب على إقليمه العلم والفهم والدين والرياسة وحب العمارة وجمع المال والسماح والبهـــاء والزينة »

فكأنهم جعلوا الذكاء والألمعية طبيعة من طبائع الفلك والاقليم، وحق لهم أن يفعلوا ذلك لأن هذا الإقليم كان حقا من أجمل الأقاليم المصرية وأخصبها ، وكان العيش فيه منية المتمنى فى ذلك الزمان ، ومن ذلك قول جمال الدين الدشنائى :

لهـفى على قـوص ولو أننى
أكـون من حراس أبوابهـا

وكانت له شهرة بالفاكهة والنخيل والرياحين وجودة الثمر ، فقال كمال الدين أبو الفضل صاحب الطالع السعيد : « وزنت حبة عنب جاءت عشرة دراهم » وكان على جودة أرضه وهوائه بابا للعـالم العربى كله فى ذلك الحين ، فكان باب مكة واليمن والنوبة وسواكن والمغرب ، وكان واليه يكاتبه ستـة ملوك ، وقد أحصى صـاحب الطالع السعيد أسمـاء المئات من الأدباء الذين نشأوا فيه وفى إدفو وأسوان ، وقال إن قاضيه زار أسوان مرة « فخرج أربعمائة راكب بغلة للقائه » ويكنون براكب البغلة عن العالم الذى يتبعه المريدون .

بقى للأدب منزلته فى ذلك الإقليم زمنـا طويلا حتى جاء العصر الحديث فوصل ما انقطع منه باجتماع عشرات من الدارسين والمتعلمين فى عاصمة الاقليم الحديثة - وهى قنا - بلدة صاحب المـكرميات . إذ كان فيها مقر المديرية والمحكمة الـكلية الأهليـة ، والمحكمة الـكلية الشرعية

وديوان الرى ومكتب الأوقاف ومدارس شتى بين ثانوية وابتدائية ، فكانت بذلك مثابة القضاة والمحامين والمعلمين والمهندسين والفضلاء من كل فن ومشرب ، ولم يكن لهم شاغل يشغلهم باللهو أو السمر فى غير الأدب وأحاديثه والكتب وطرائفها ، فلا عجب أن تكون بقديمها وجديدها صاحبة الحركة الأدبية الثانية بعد حركة القاهرة فى أوائل القرن العشرين .

وقد كان لمدرستها طابع الزمن الذى ازدهرت فيه، فكان شعرها من قبيل شعر البهاء وابن مطروح ، سلاسة وعذوبة وظرفا وحسن فكاهة وكان نثرها من قبيل نثر الكتاب المعاصرين لذينك الشاعرين ، وهو على الأغلب نثر القاضى الفاضل والعماد، أو هو النثر الذى اشتهر بالسجع والجناس والتورية والطباق.

فصاحب المكرميات بحق وليد تلك المدرسة العريقة فى قديمها وحديثها ، ومن عرف هذه الحقيقة عرف لماذا يعنى صاحب المكرميات بجميع هذه المحسنات فى نثره . فلا تخلو خطبه أو فصوله من سجع تتلوه تورية ويمتزج بها جناس هنا ، وطباق هناك ، ولا يزال موفقا فى اختيارها كل التوفيق حيثما ذهب طوع السليقة، فى هذه الخطب والفصول

تلك هى مدرسة الأدب الحديث التى نشأ على تراثها المجيد صاحب المعالى مكرم عبيد باشا فى صباه ، فلا يسع القارىء الذى يتابع الصفحات التالية إلا أن يرى فيها الأسلوب الطبيعى المعقول لمن ورث ذخائر المدرسة القنائية من يوم احتفظت بروح النثر والشعر ، كما

صاغهما البهاء وابن مطروح والقاضى الفاضل والعماد .

وفيما تقدم تفسير للنشأة دون الشخصية ، ولكن مكرما ليس بالخطيب الأديب الذى تفسره مدرسة النشأة فتغنى عن تفسير الشخصية التى تضيف إليها من عندها وتستقل بهباتها ومزاياها .

فأما تفسير « الشخصية » فى أدب المكرميات فهو أنها من وحى رجل يجمع بين هبة الأديب ونشاط السياسى صاحب الأعمال .

فما من أديب موهوب إلا وله طريقته فى تنبيه « وعيه الباطن » الذى ترجع إليه جميع الهبات الفنية ، فمنهم من ينبه وعيه الباطن بالسماع ، ومنهم من ينبهه بالتبغ أو الشراب ، ومنهم من ينبهه بالرياضة أو السير على الأقدام ، ومنهم من ينبهه بالعزلة فى الرياض والبساتين .

أما طريقة مكرم فى تنبيه وعيه الباطن فهى الطريقة التى توائم الأديب الذى يقرن بالأدب عملا آخر بل أعمالا أخريات ، وتلك الطريقة هى ازدحام الأعمال .

ويلوح هذا عجيبا ولكنه كذلك ليس بعجيب، لأن « مشغولية الحس » إذا بلغت مداها حجبته عما حوله فترة من الزمن وردته إلى باطنه يسكن إليه ، ومن ثم كان أروع ما كتب مكرم ، هو ما كتبه وحى الساعة الأخيرة وهو يحسب أنه قد ضاق به الوقت أو سيضيق به عن إنجازه ، فإذا به أنسب الأوقات للخلو إلى

نفسه والعكوف على قريحته ، لأنه الوقت الذى استوفى فيه الحس غايته من زحمة العمل وضغط المبادرة ، فانفرد فيه الوحى الباطن بالإيحاء والتنبيه .

وكذلك نرى أن هذه « المكرميات » هى من ثمار الأدب المطبوع فى بابه وأسلوبه . لأنها أدب الأديب الذى نشأ نشأة مكرم وتلقى تراث المدرسة القنائية فى أوجها ، وطبع على العمل الدائم والشواغل الكثيرة ، وكل أدب مطبوع فهو أدب صاحبه لا يتكرر لغيره ، وكذاك هذه الخطب والفصول الشائقات التى نقرأها فى هذه المكرميات ؟

عباس محمود العقاد